



احتدمت العلاقة بين الأميركيين والروس في ساحات الشرق الأوسط بعد الضربة على قاعدة الشعيرات التي وقف أمامها الجنود الروس متفرجين، فاقدى القدرة على الرد. هذا الاستخفاف بالحضور العسكري لقوتهم لا يمر في العقل الروسي مرور الكرام، فروسيا أيام القيصر الجديد بوتين عادت دولة عظمى وراكمت معنيات هائلة واستعرضت قوتها في القارة الأوروبية والبحر المتوسط وسوريا.

وقد أتت هذه الحادثة لضعف مكانة القيادة الروسية أمام جنودها وأمام حلفائها في الساحة الدولية. طبعاً الأمر لا ينتهي عند هذا الحد، فروسيا لديها الكثير لتقوله وتفعله لاحقاً، خصوصاً أن الرد الفوري على خطوات ترامب المتتسارعة في بداية عهده قد تحمل كثيراً من الأخطار فيما بالإمكان رسم معالم منهجية الرد من خلال التأكيد على الفيتو المعتمد في مجلس الأمن والالتزام بالمحور المستدام الذي جمع قادة الممانعة في موسكو، إضافة إلى التفرج على ما سيؤول إليه عرض القوة الذي ينفذه الرئيس الأميركي على امتداد المساحة العالمية.

من البساطة النظر إلى الضربة الأميركيّة على مطار الشعيرات بشكل منفصل عن السياق العام الذي تشكّل في الشرق الأوسط بعد وصول ترامب إلى الرئاسة الأميركيّة وتطلعه إلى إعادة الثقة للعلاقات مع حلفاء الولايات المتّحدة التقليديّين. فما جرى يأتي في سياق تسلسلي لإعادة ترتيب الملفات وتوزيع المهام وفقاً للرؤية الأميركيّة الجديدة، وليس أدلّ على ذلك إلا الحديث الهاتفي الذي أجراه الرئيس الأميركي مع العاهل السعودي الملك سلمان مباشرة بعد الضربة وكأنّها أتت تلبية لتوجه عام مُتوافق على عناوينه مع الحلفاء مسبقاً، وتكمّن أهميّة كل ذلك في أنه يحصل قبل استكشاف إمكانية التفاهم الأميركي مع الروس حول الملف السوري.

طبعاً إن إعادة الفعالية لدور أميركي في الشرق الأوسط ربما تفضي إلى «صفقة» مع الروس تبرز ملامحها مع تجدد الحديث عن وضع مصير الأسد على الطاولة والإغراءات التي تقدمها الدول الغربية لروسيا، أو قد يقول إلى مواجهة يؤشر إليها التقارب بين روسيا وإيران اللتين تطمحان إلى اعتماد الخيار الفيدرالي الذي يبقى له «عائلة الأسد» دوراً نتية للخدمات والتضحيات التي قدّمتها لكل منهما.

ومن المبكر جداً التفاؤل بإمكانية أن تلعب روسيا دوراً إيجابياً في ما يتعلق بمصير الأسد بعد المكاسب الاستراتيجية التي راكمتها في سوريا نتيجة التحالف معه. أضف إلى ذلك أن إزاحة الأسد تعني انتصاراً نظيفاً للمعارضة السورية لن يتوقف عند هذا الحد بل قد تصل ارتداداته إلى طهران وموسكو اللتين تدخلتا حتى يتحاشيا ذلك.

بالتوالي فإن الحديث عن جاهزية روسيا لتسوية شاملة مع إدارة ترامب أمر مشكوك بصحته، لأن ذلك لو صحّ فكان الأرجى أن يحصل أيام إدارة الرئيس السابق باراك أوباما التي فتحت آفاقاً لطموحات بوتين وحاولت التوصل معه إلى صفقة كبرى. ترتيب الملفات الدولية بشكل مُنسق مع الأميركيين لن يترك لقيادة الروسية ما تُراكم عليه في الداخل الذي يتحرك بوتيرة تصاعدية ويضيء على الملفات الحساسة وعلى الوضعين الإداري والاقتصادي المتردي، ولا في الخارج أمام المحور المُواجه للولايات المتحدة الذي عقد آمالاً على النظرة الروسية لعالم متعدد الأقطاب. هذا عدا الطيّاب الشخصية لكل من الرؤيسين ترامب وبوتين حيث سيشهد أول لقاء بينهما اختباراً نفسياً ومواجهة ذات طابع كاريزماتي بين الإثنين، والمعرف عن كليهما التحضير المدروس والمبني لهذه «المطارحة».

وفي الوقت ذاته فإن الدبلوماسية الروسية تعيش حالياً في مأزق جدي، إذ ليس سهلاً على روسيا العودة إلى بيان جنيف الأول ويبحث مصير الأسد بعد أكثر من عام ونصف على تدخلها العسكري القوي بهدف حماية النظام السوري وضرب الأسس التي قام عليها جنيف 1، إضافة إلى الكلفة المعنوية التي تحملها في كل مرة يرتكب فيها النظام آثاماً من نوع استعمال السلاح الكيماوي أو حين يتعرض إلى ضربات إسرائيلية أو أميركية، إضافة إلى التراجع «الاستراتيجي» من مهمة حماية المنشآت الحيوية للنظام إلى الاكتفاء بحماية التوأّد الروسي على الأراضي السورية.

في المقابل تقدم الدبلوماسية الأميركيّة تجربة متناسقة في مهمة استعراض القوة عندما كانت مثقلة بتراثات الأعوام السابقة. وقد اختصر ترامب المشهد كله حين قال: «إذا لاحظتم ما حصل خلال 8 أسابيع وقارنتموه مع ما جرى خلال 8 سنوات ستعون أن هناك فارقاً هائلاً». فهو أطلق العنان لعسكريّه في التصرف ورسم الخطط والتوجهات، وهي بأشغالها كانت جاهزة في كل ما يتعلق بمناطق التوتر في العالم لكنها افتقدت أيام الرئيس أوباما للمبادرة والقرار. وفي الوقت ذاته أطلق يد ممثّلة الولايات المتحدة في مجلس الأمن نيك هايلي ودعّمها بشكل شخصي وغير مسبوق، أكسبها قوة وزخماً معنويين انعكس على قوة الدبلوماسية الأميركيّة ومكانتها القياديّة على الساحة الدوليّة.

إذاء كل ذلك تنجح روسيا في حال حددت أهداف معركتها بالحفاظ على المكتسبات والمكانتة التي حققتها في عهد الرئيس أوباما، وإنّي هذه المكتسبات حماية نظام الأسد، وتنجح أكثر في حال اعتمدت استراتيجية الانتظار وراهنّت على الدبلوماسية لربما تورّطت إدارة الرئيس الأميركي بنزاع طويل الأمد في واحدة من أشد بؤر التوتر في العالم. في المقابل لا تنجح الولايات المتحدة الأميركيّة في حال اقتصرت أهداف معركتها على التعويض عما خسرته خلال السنوات الثماني الماضية، ولا شك أن طموحات ترامب لا تقف عند هذا الحد.

المصادر: